عوامل البناء والهدم في القرآن الكريم

(حضارة ثمود نموذجا)

دراسة تفسيرية حضارية

د. منى عبدالحميد محمود خليل

مدرس الدراسات الإسلامية

بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

كلية التربية – جامعة عين شمس

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن عوامل بناء وهدم حضارة ثمود في إطار الدراسة التفسيرية الحضارية،وقد تبين أن حضارة ثمود مرت بثلاثة أعمار مرحلية،النشأة ثم الازدهار ثم السقوط ،وقد تأثرت هذه المراحل بعوامل البناء والهدم،فمن عوامل البناء :العلم،التعاون والمشاركة،البيئة الجغرافية والعوامل الطبيعية،الأمن والنظام السياسي المستقر،ومن عوامل الهدم :الكفر بالله وتكذيب الرسل،الظلم،الطيرة،الترف والفساد،الاستكبار .

الكلمات المفتاحية:البناء–الهدم–الحضارة–العلم–الكفر .

Factors of Construction and Destruction in the Holy Quran(the Civilization of Thamud as a Model)

A Civilizational Interpretative Study

Abstract: This research aims to explore the factors of construction and destruction of Thamud civilization within the framework of a civilizational interpretative study. It was found that Thamud civilization went through three developmental phases:inception,prosperity.and collapse These phases were influenced by various factors of construction and destruction.Among the factors of construction were: Knowledge and cooperation and participation,geographic environment and natural factors,and political stability and security. on the other hand,the Factors of Destruction included:disbelief in(Allah)God and denial of the messengers,injustice,bad omens,luxury and corruption,and arrogance.

Keywords: Construction- Destruction- civilization-Knowledge-Disbelief.

عوامل البناء والهدم في القرآن الكريم
(حضارة ثمود نموذجا)
دراسة تفسيرية حضارية

د.منى عبدالحميد محمود خليل
مدرس الدراسات الإسلامية
بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
كلية التربية–جامعة عين شمس

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلوات ربي عليه وسلامه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد .....

فقد خلق الله الإنسان وفضله على سائر الخلق بالعقل وأهلّه لكي يكون خليفة في الأرض وسخر له جميع مافي الكون، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ {سورة الإسراء: الآية ٧٠}، وأرسل إليه الرسل والأنبياء لإرشاده إلى طريق الهداية وحسن الخلق حتى يستطيع عمارة الأرض وبناء مجتمع إنساني يقوم على مبادئ إنسانية وأسس سامية، وهذا ما يشهد بالقيمة الحضارية والثقافية لأمة من الأمم.

والمتأمل لآيات القرآن الكريم يجد فيها نماذج لبعض حضارات الأمم السابقة، كل حضارة تعبر عن معتقدات أهلها وتوضح ما أنجزته وأنشأته من عمران مادي، ولكي يستمر هذا العمران ويزدهر لابد أن يقوم على قيم دينية وخلقية، فالقيم تنبع من عقيدة

التوحيد بالله، وهذا العامل افتقدته بعض الحضارات السابقة، ومن بين هذه الحضارات حضارة ثمود، تلك الحضارة التي هلكت وانقرضت؛ ومن هنا فقد رأت الباحثة أن يكون موضوع بحثها بعنوان: "عوامل البناء والهدم في القرآن الكريم (حضارة ثمود نموذجا) دراسة تفسيرية حضارية".

ومن الأسباب التي جعلتني أختار هذا الموضوع هو رغبتي في خدمة كتاب اللهﷻ والحاجة الملحة للرجوع إلى منهج الإسلام لمواجهة ما تعانيه البشرية من حالة التردي الحضاري، علاوة على أنه لم يفرد أحد من الباحثين – فيما أعلم – دراسة تتناول هذا الموضوع بشكل مستفيض في إطار الدراسة التفسيرية الحضارية، وأما عن الدراسات السابقة، فكما ذكرت لم يفرد أحد من الباحثين دراسة تناولت هذا الموضوع ولم يتناولها أحد بشكل موسع ومستفيض في إطار الدراسة التفسيرية الحضارية، وإنما هناك بعض الدراسات التي تناولت الحديث عن قوم ثمود من الناحية التاريخية ودراسات أخرى أشارت في ثنايا موضوعاتها إلى مقتطفات من حضارة ثمود وهي إشارات بسيطة تبتعد عن المنحى المتجه إليه في هذا البحث، ومن بين هذه الدراسات:

- مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم: عمار توفيق أحمد بدوي، ماجستير، إشراف الدكتور محسن سميح الخالدي، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠٠٥م.
- فجر الحضارة العربية القديمة: رؤية تاريخية حول حضارات الأقوام العربية العتيقة "عاد، ثمود، مدين": عبدالله عبده إسماعيل أبو الغيث ، مجلة كلية الآداب، العدد ٨٨، جامعة بغداد، ٢٠٠٩م.
- القيم الحضارية في القصة القرآنية – دراسة موضوعية: خالد كمال الإبراهيم، دكتوراة ، إشراف الأستاذ الدكتور محمد سرحان، قسم أصول الدين، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة اليرموك ٢٠١٢– ٢٠١٣م.

- قصة هود وصالح –عليهما السلام – دراسة موضوعية مقارنة: زكريا سعيد عبدالرحمن سحويل، ماجستير، إشراف الأستاذ الدكتور جمال محمود الهوبي،كلية أصول الدين الجامعة الاسلامية بغزة ، ٢٠١٨ م .

أما عن المنهج المتبع في هذا البحث فقد اخترت المنهج الوصفي التحليلي وانقسم البحث إلى مبحثين يسبقهما التمهيد وتتلوهما الخاتمة، وقائمة المصادر والمراجع.

- المقدمة: وتشمل التعريف بموضوع البحث وأسباب اختياره والدراسات السابقة والمنهج المتبع.
- تمهيد: ويشمل التعريف بنبي الله صالح ﷺ وقومه ثمود والتعريف بالحضارة لغة واصطلاحًا.
- المبحث الأول: ويشمل عوامل بناء حضارة ثمود ومنها العلم والتعاون والبيئة الجغرافية والعوامل الطبيعية، والأمن والنظام السياسي المستقر.
- المبحث الثاني: ويشمل عوامل هدم حضارة ثمود ومنها الكفر بالله وتكذيب الرسول، الظلم، الطيرة، الترف والفساد، الاستكبار.
- الخاتمة: وتشمل أهم نتائج البحث.

تمهيد

أولاً: التعريف بنبي الله صالح ﷺ– وقومه ثمود:

– التعريف بنبي الله صالح ﷺ:

تعددت أقوال المفسرين في ذكر نسب نبي الله صالح ﷺ بشيء من التفصيل ومثلها ورد في كتب التاريخ[١]، وهذه الأقوال لا يدل عليها خبر صحيح من القرآن أو السنة، فالثابت والصحيح ورود اسم نبي الله صالح في ستة مواضع من القرآن الكريم[٢] بشيء من الإجمال دون التعرض لذكر نسبه ﷺ، فقد أشار إلى أنه من قبيلة ثمود، فنسبه

(١) انظر جامع البيان: الطبري، ١٠ / ٢٨٢، تحقيق عبدالله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر، مصر، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م،انظر معالم التنزيل: البغوى ٢٤٧/٣، تحقيق عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرشي، ط٤، دار طيبة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ومن كتب التاريخ، انظر تاريخ الرسل والملوك: الطبري، ٢٢٦/١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، مصر، انظر البداية والنهاية: ابن كثير١٥٠/١، تحقيق علي شيرى، ط دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م،انظر الكامل فى التاريخ: ابن الأثير، ٨٢/١، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ط دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م.

(٢)الستة مواضع هي : الأعراف آية ٧٣ ، هود آية ٦١، ٦٢، ٦٦، الشعراء آية ١٤١، النمل آية ٤٥.

إلى ثمود، ووردت قصته مع قوم ثمود في مواضع متعددة من القرآن الكريم بشيء من التفصيل منها سورة الأعراف، هود، الشعراء، النمل، القمر.

ومن الآيات القرآنية التي تدلل على نسبة نبي الله صالح إلى قوم ثمود: قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ {سورة الأعراف: الآية ٧٣}، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ {سورة هود: الآية٦١}، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ {سورة الشعراء: الآيات ١٤١-١٤٣} وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ {سورة النمل: الآية٤٥}، قال الإمام البغوي: "(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا) أي أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا في النسب لا في الدين"(٣).

وقال الإمام القرطبي:" (وَإِلَى ثَمُودَ): أى أرسلنا إلى ثمود (أَخَاهُمْ) أي: في النسب"(٤)، وذكر الإمام أبو حيان أن الجمهور منع لفظ ثمود من الصرف وجعلوه اسم القبيلة، وقيل سميت ثمود لقلة ما بها من الثمد وهو الماء، والأخوة هنا يقصد بها القرابة، فنسبه راجع إلى قوم ثمود(٥). وبذلك تبين أن نسبه عليه السلام يرجع إلى ثمود وأنه منهم.

(٣)معالم التنزيل: البغوي ، ١٨٥/٤

(٤)الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٥٥/٩، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفش، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

(٥)انظر البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، ٩٠/٥، بعناية صدقي محمد جميل العطار، زهير جعيد، عرفان العشا، ط دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

-التعريف بقوم ثمود:

كذلك تعددت الروايات التي نقلها المفسرون في ذكر نسب ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام بشيء من التفصيل ومثلها ورد في كتب التاريخ[٦]، وهذه الروايات أيضا لم تثبت بخبر صحيح من القرآن أو السنة، فلم يذكر القرآن نسبهم وإنما تحدث عن مساكنهم ونعم الله عليهم وقصتهم مع نبي الله صالح، وقد جاء في القرآن الكريم أنهم نزلوا الحجر واتخذوا فيه بيوتا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ {سورة الحجر: الآيات ٨٠-٨٢}، ذكر الإمام الطبري أن الحجر أرض بين الحجاز والشام، وأصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح عليه السلام[٧]، كما ذكر الإمام السعدي أن أصحاب الحجر هم قوم ثمود القبيلة المعروفة قوم صالح عليه السلام الذين كانوا يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز[٨].

كما تعرضت السنة النبوية لذكر مساكن قوم ثمود، وقد مر النبيﷺ على مساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك[٩]، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن شهاب وهو يذكر الحجر مساكن ثمود عن سالم بن عبدالله قال: إن عبدالله بن عمر قال: "مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر، فقال لنا رسول الله ﷺ: "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكيين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ثم زجر فأسرع حتى خلفها"[١٠].

ثانيًا: التعريف بالحضارة لغة واصطلاحًا:

-التعريف بالحضارة لغة:

عرف ابن منظور الحضارة بأنها خلاف البداوة والحاضر المقيم في المدن والحضارة هي الإقامة في المدن وسميت بذلك الاسم؛ لأن أهلها حضروا الأمصار

---

(٦)انظر جامع البيان: الطبري، ٢٨٢/١٠- ٢٨٣،انظر معالم التنزيل: البغوي، ٢٤٧/٣- ٢٤٨، ومن كتب التاريخ:انظر تاريخ الرسل والملوك: الطبري، ٢٠٤/١،انظر البداية والنهاية: ابن كثير، ١٥٠/١،انظر الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٨٢/١.

(٧)انظر جامع البيان: الطبري، ٢٨٢/١٠، ١٠٤/١٤.

(٨)انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ٢٩٤/١، ٤٣٤، تحقيق عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

(٩)انظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٤٣٩/٣، تحقيق سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

(١٠)صحيح مسلم، ٢٢١/٨ كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكيين، حديث رقم ٧٦٥٦٠، ط دار الجيل بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

وسكنوا الديار واستقروا بها[١١]، وكذلك أشار الفيروز آبادي إلى أن الحضارة خلاف البادية وهي الإقامة في الحضر[١٢]، وفي المعجم الوسيط: الحضارة تطلق على الإقامة في الحضر، وهي ضد البداوة وتعد مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني ومظاهر التقدم والرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي الذي يتواجد في الحضر[١٣]. ونخلص من هذه التعريفات أن الحضارة خلاف البادية وهي حالة من التقدم والرقي بشتى أنواعه.

-التعريف بالحضارة اصطلاحا:

تطور التعريف الاصطلاحي للحضارة مع تطور العصور المختلفة التي قامت فيها الحضارات، حيث لم يتفق الباحثون على تعريف معين لها، نظرا لاختلاف مجتمعاتهم ومدارسهم الفكرية، فلكل مجتمع حضارة تميزه عن المجتمعات الأخرى، نظراً لاختلاف المجتمعات من حيث النشأة والخصائص، فالحضارة عند ابن خلدون هي: تفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع المختلفة التي تنقل الناس من حالة البداوة إلى حالة التحضر[١٤]، ويضيف ابن خلدون أن العمران مظهر من مظاهر الحضارة التي يدعو إليها الترف، قال ابن خلدون: "البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة"[١٥]. كما أن الحضارة عنده تكون أكمل إذا كان العمران أكثر[١٦]، ويتطور المعنى الاصطلاحي للحضارة عند ابن خلدون عبر العصور المختلفة ليشمل كل ما ينتجه الإنسان من مظاهر التقدم بأشكاله المختلفة.

---

(١١)انظر لسان العرب: ابن منظور، ١٩٦/٤، ط١، دار صادر، بيروت.

(١٢)انظر القاموس المحيط: الفيروز آبادى، ٣٧٦ ، باب الراء فصل الحاء، تحقيق مكتب تحقيق التراث، ط٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

(١٣)انظر المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات وآخرون، ١٨١/١، تحقيق مجمع اللغة العربية، ط دار الدعوة.

(١٤)انظر مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، ٤٥٠، تحقيق حامد أحمد الطاهر، ط١، دار الفجر للتراث، القاهرة، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

(١٥) مقدمة ابن خلدون، ٤١٧.

(١٦)مقدمة ابن خلدون ، ٤٥٠.

فالحضارة الآن تطلق اصطلاحا على: "كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه عقلاً وخلقاً، مادة وروحا، دنيا ودينا"[١٧]، فالحضارة تشمل كل ما ينجزه الإنسان على مختلف العصور، كما أنها تمثل تراث جماعة من الناس والذي يميزها عن غيرها من الجماعات الأخرى، كما أن الحضارة بهذا المعنى تشمل الجانبين: الروحي والمادي، فهى أعم من الثقافة التي تطلق على الجانب الروحي أو الفكري من الحضارة؛ ونلحظ فيها أن النشاط البشرى في شتى جوانبه يكون في أرقى حالاته في الحضر وأن سكان الحاضرة أكثر تقدما من سكان البادية[١٨].

ويتضح من التعريف الاصطلاحي للحضارة أنه لا يخرج عن المعنى اللغوي لها ولكنه – كما تقدم – تطور عبر العصور المختلفة ليشمل كل ما ينجزه الإنسان من مظاهر التقدم والرقي سواء كانت مظاهر أدبية أو فنية، أو اجتماعية أو غيرها.

المبحث الأول

عوامل بناء حضارة ثمود

-مراحل بناء الحضارة:

تحدث القرآن الكريم عن بعض الحضارات السابقة لحضارة الإسلام، ولو توقفنا مع مضمون الآيات القرآنية التي تعرضت لهذه الحضارات سنجد أن كل حضارة انطلقت من منطلقات معينة في بناء صرحها، فقد بنت مستقبلها ومظاهرها واجتماعياتها على معتقدات آمنت بها[١٩]، وبعد علو وازدهار واستقرار سارت إلى الضعف والانحطاط والانهيار؛ لأنها لم تأخذ بعوامل الرقي، وانتشر فيها الفساد بشتى أنواعه كالفساد العقدي، أو الأخلاقي أو الاقتصادي أو السياسي، ونتبين من ذلك أن للحضارة ثلاثة أعمار مرحلية طبيعية ذكرها ابن خلدون في مقدمته وهي:

---

(١٧) الإسلام والحضارة الغربية: محمد محمد حسين، ٦، ط دار الفرقان.

(١٨)الإسلام والحضارة الغربية: محمد محمد حسين، ٦.

(١٩)انظر مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم: عمار توفيق، ١٦، ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٥م.

- **المرحلة الأولى:** وهى مرحلة النشأة والبناء والتأسيس للحضارة، وفيها بداية ميلادها.
- **المرحلة الثانية:** وهي مرحلة العلو والازدهار والمجد، وفيها تبلغ الحضارة أقصاها وتكون في أرقى مراحلها وأشد قوتها.
- **المرحلة الثالثة:** وهي مرحلة الضعف والانحطاط ثم الانقراض، وفيها تتعرض الحضارة للضعف والسقوط بسبب الانغماس في الترف والإسراف في الشهوات وانتشار الفواحش والمنكرات(٢٠).

وتعد حضارة ثمود من بين هذه الحضارات التي مرت بالمراحل الثلاث، وسوف يتضح ذلك من خلال هذا البحث.

-عوامل بناء حضارة ثمود:

كرم الله تعالى الإنسان على سائر الخلق، وسخر له الطبيعة ليستثمرها وينتفع بها، وفضله بالعقل الذي يعينه على استصلاح شئونه ودفع الأضرار عنه والوصول إلى العلوم والمعارف، ومن ثمَّ التمكن من القيام بمهمة الخلافة فيتطور ويتقدم في أساليب حياته وحضارته(٢١). قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ {سورة الإسراء: الآية ٧٠}، قال الإمام ابن عاشور عند تفسيره لهذه الآية: "وقد جمعت الآية خمس منن: التكريم وتسخير المراكب في البر وتسخير المراكب في البحر ، والرزق من الطبيبات، والتفضل على كثير من المخلوقات"(٢٢).

---

(٢٠)انظر مقدمة ابن خلدون، ٢٢٠- ٢٢١، وانظر: الخلدونية: نور الدين الحقيقي، ١١٦- ١١٧، العلوم الاجتماعية وأساس السلطة السياسية، ترجمة إلياس خليل وهران، المطبعة الجوهية، ١٩٨٤.

(٢١)انظر التحرير والتنوير: ابن عاشور، ١٥/١٦٥- ١٦٦، ط الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

(٢٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ١٥/١٦٤.

ومن هنا لكي تنهض الحضارات وتزدهر، لابد لها من عوامل وأسس تبنى عليها، سواء كانت عوامل مادية أو معنوية وإلا تعرضت هذه الحضارات للانهيار والسقوط.

وبناء على ماسبق سنتناول أهم العوامل والأسس التي كانت سببا في بناء حضاره ثمود، ومدى تأثير هذه العوامل في الوصول بهذه الحضارة إلى ذروة المجد والازدهار.

أولاً: العلم:

يعد العلم عاملاً أساسيا من عوامل القيام بمهمة الخلافة، كما أنه يؤثر في العوامل الأخرى التي تقوم عليها الحضارة ويرفعها إلى أعلى، والعلم فضيلة اختص بها آدم عليه السلام على غيره من المخلوقات، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾{سورة البقرة: الآية ٣١}، فالعلم يساعد الإنسان على اكتشاف حقائق الأشياء وخصائصها، قال الإمام الرازي عند تفسيره للآية السابقة: "ولا شك أن الإنسان أفضل من سائر الحيوانات وليس هذه الفضيلة لقوته، وإنما تلك الفضيلة ليست إلا لاختصاصه بالمزية النورانية واللطيفة الربانية التي لأجلها صار مستعدا لإدراك حقائق الأشياء والاطلاع عليها والاشتغال بعبادة الله على ما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾"[٢٣] {الذاريات: ٥٦}.

وتعد كثرة العلوم وازدهارها علامة من علامات تقدم الحضارة وتطورها. قال ابن خلدون في مقدمته: "العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظيم الحضارة"[٢٤].

والعلوم قسمان: قسم معنوي وقسم مادي، فالعلوم المعنوية تشمل العلوم الدينية والإنسانية، والعلوم المادية تشمل كل ماله علاقة بالكون كعلوم الفيزياء والكيمياء والصناعة وغيرها.

([٢٣]) مفاتيح الغيب: الرازي، ٤١٦/٢، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.
([٢٤]) مقدمة ابن خلدون، ٥٢٣.

وأول علم يجب أن تؤسس عليه الحضارة هو العلم بالدين، فالحضارة في جميع مظاهرها المادية والمعنوية يجب أن تقوم على مرجعية دينية؛ لأنها حضارة استخلافية، استخلف الله فيها الإنسان على سطح الأرض ليعمرها وفق أوامره ونواهيه، فالإنجاز الحضاري على سطح الأرض ينطلق من الإيمان بالعقيدة[٢٥].

وقد كان للعامل الديني دور في بناء حضارة ثمود وازدهارها في بدايتها، فعندما كانوا يعبدون الله ﷻ ويفردون له العبادة، أنعم عليهم بالكثير من النعم[٢٦]، ولكن لما أشركوا به وانتشر الفساد بينهم وكذبوا رسوله كان مصير حضارتهم الانهيار والسقوط، وسوف يتبين ذلك من خلال المبحث القادم.

والنوع الثاني من العلوم والذي لا تقوم الحضارة إلا به هو العلم بالكون؛ "إذ لما كانت البيئة الطبيعية هي المسرح الذي عليه يتم أداء مهمة الخلافة، وهي المادة التي تستثمر من أجل التعمير، فإن ذلك يقتضي علما بهذه البيئة، وذلك سواء من حيث حقيقتها الذاتية في عناصرها ومركباتها أو من حيث قوانينها وسننها التي تجري عليها والتي لا يتحقق استثمار إلا من خلالها أو من حيث أبعادها الدلالية المفضية إلى ما وراءها من حقائق الغيب، فكل تلك الوجوه شروط ضرورية لقيام حضارة تكون شاهدة على الناس..." [٢٧].

والعلم بالكون من العلوم المادية التي برعت فيه حضارة ثمود والذي ساعد على ازدهارها وتقدمها؛ فقد برعت في علم الهندسة المعمارية وتفوقت في فن النحت والبناء.

ويقع علم الهندسة المعمارية أو علم البناء في مقدمة العلوم وأقدمها والتي اعتمدت عليها الحضارات في بناء صرحها. قال ابن خلدون: "هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى

---

(٢٥)انظر معالم المنهج الحضاري في الإسلام: عبدالمجيد النجار، ١٥٠ ،ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد الخامس والعشرون، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

(٢٦)انظر جامع البيان: الطبري، ٢٨٦/١٠،انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٣٠٤/١٤- ٣٠٥،انظر التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٢١٦/٨.

(٢٧) معالم المنهج الحضاري في الإسلام: عبدالمجيد النجار، ١٥٦.

في المدن. وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله، لابد له أن يفكر في موانع إذاية الحر والبرد عنه باتخاذ البيوت ذوات الحيطان والسقف الحائلة دون ذلك من جهاته..." [٢٨].

وقد دلت الآيات القرآنية على تفوق حضارة ثمود في علم البناء ونحت الصخور لاتخاذ مساكن لهم، منها قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾{ سورة الأعراف: الآية ٧٤}، جاءت هذه الآية في سياق حديث سيدنا صالح عليه السلام مع قومه ثمود وتذكيرهم بنعم الله عليهم، قال الإمام الطبري: " (إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ): تخلفون عادا في الأرض بعد هلاكها .... (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ): وأنزلكم في الأرض وجعل لكم فيها مساكن وأزواجا ....(تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا) ذكر أنهم كانوا ينقبون الصخر مساكن"[٢٩].

فقد جعل الله قوم ثمود خلفاء لعاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس، واتخذوا من سهول الأرض وجبالها قصورا. ودورا عالية بما حذقوا بإلهامه تعالى من فنون الصناعة كضرب الآجر واللبن والجص وهندسة البناء[٣٠].

وقد دلت الآيات القرآنية على أنهم كانوا حاذقين بنحت الجبال واتخاذها بيوتا، قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ {سوراة الشعراء: الآية١٤٩}، جاء في معنى"فارهين" أقوال متعددة، ذكرها الإمام الطبري في تفسيره منها[٣١]: (فارهين) بمعنى حاذقين بنحتها، وقرىء (فرهين) بغير ألف بمعنى: أشرين بطرين، وقال آخرون: معنى

([٢٨]) مقدمة ابن خلدون، ٤٨٩.

([٢٩])جامع البيان: الطبرى ، ٢٩٨/١٠- ٢٩٩.

([٣٠])انظر تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، ٤٤٨/٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، الآجر هو اللبن المحرق المعد للبناء، والجص من مواد البناء، انظر المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات وآخرون، ١/١، ١٢٤/١.

([٣١])انظر جامع البيان: الطبري ، ٦٢١/١٧-٦٢٤.

فارهين: مستفرهين متجبرين، وقال بعض آخر: فارهين: كيسين، وقيل: فرهين: أقوياء، وقيل معجبين فرحين.

والظاهر أن كلمة: "فارهين" فريدة من الفرائد القرآنية والتي تحمل في طياتها كل هذه المعاني السابقة؛ لأن المعنى أن قوم ثمود كانوا ينحتون البيوت من صخور الجبال – كما ورد في هذه الآية – وينحتون بيوتهم في هذه الصخور كما في قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ { سورة الأعراف: الآية ٧٤} حالة كونهم حاذقين بأصول هذه الصنعة، أشرين بطرين بتلك البنايات، متجبرين ومستعلين فيها، معجبين فرحين ببنائها معتقدين أنهم آمنين ناعمين فيها، فلا تعارض بين هذه المعاني، فيمكن الجمع بينها(٣٢)، قال الإمام ابن كثير: "ولا منافاة بينها فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرا وبطرا وعبثًا من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم"(٣٣).

كذلك من الآيات القرآنية التي تدل على تفوق ثمود وتمكنهم من صنعة البناء والنحت، قوله تعالى: ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾{سورة الفجر: الآية٩}، قال الإمام الطبري: "وثمود الذين خرقوا الصخر ودخلوه فاتخذوه بيوتا كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾" (٣٤) {سورة الحجر: الآية٨٢}".

وديار قوم ثمود باقية إلى اليوم وتشهد على تقدمهم العمراني وقد قدمت الدراسة– سابقًا– أن النبيﷺ مر بها وأصحابه.

(٣٢) انظر الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية: عبدالله عبدالغني سرحان، ٦٣، مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليم، الرياض السعودية، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.
(٣٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ١٥٦/٦.
(٣٤) جامع البيان: الطبري، ٣٦٨/٢٤.

ثانيا: التعاون والمشاركة المجتمعية:

يعد التعاون والمشاركة من أبرز العوامل التي تقوم عليها الحضارات، فالأمم لا تنهض ولا تتقدم إلا بوجود التعاون والذي يوصلها مع سائر العوامل الأخرى إلى ذروة المجد والازدهار.

والعمران عند ابن خلدون لا يقوم إلا على التعاون والمشاركة؛ فإن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضا لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه، ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته(٣٥).

وعلى هذا الأساس، يرى ابن خلدون أن مصانع ثمود ومبانيها لم تقم على عظم أجسامهم والتي تختلف عن أجسامنا، كما ورد عن بعض القصاص، فهي أخبار عريقة في الكذب وإنما كانت هذه المباني بالهندام واجتماع الفعلة وكثرة الأيدي عليها(٣٦).

وعلى الرغم من أن ابن خلدون يرى أن مباني ثمود لم تقم إلا على التعاون دون الاعتماد على عظم أجسامهم واختلافها عن أجسام البشر، فأرى أنه لا مانع من الجمع بين العاملين: التعاون وقوة أجسامهم في تشييد هذه المباني، دون الخوض في تفاصيل قوة أجسامهم وأحجامها، لأن مثل هذه التفاصيل لايدل عليها نقل صحيح، فالتعاون والقوة يحققان الهدف المنشود وهو النهوض بالعمران والذي يعد مظهرا من مظاهر الحضارة. قال الإمام الشوكاني: "وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها كهوفاً يسكنون فيها"(٣٧)، فنحت الجبال من الأعمال الشاقة التي تحتاج إلى الصبر ويتطلب العاملين معا، التعاون والقوة المتمثلة في صلابة أجسامهم.

---

(٣٥)انظر مقدمة ابن خلدون، ٤٥٦.

(٣٦)انظر مقدمة ابن خلدون، ٢٢٨ - ٢٢٩ الهندام هو التنظيم والإصلاح، انظر المعجم الوسيط، ٩٦٧/٢.

(٣٧)فتح القدير: الشوكاني، ٢٥١/٢، ط١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ.

وقد تحدث بعض المفسرين عن عظم أجسام الأقدميين كقوم عاد ومثيلتها ثمود، قال الإمام الطبري: "كانوا اثنى عشر ذراعا طولاً في السماء"[٣٨]، ونقل الإمام القرطبي في تفسيره أنه كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا وقيل: كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة وكان عين الرجل يفرخ منها السباع وكذلك مناخرهم، كما كان الرجل من قوم عاد يتخذ المصراعين من حجارة لو اجتمع عليها خمسمائة رجل من هذه الأمة لم يطيقوه وإن كان أحدهم ليغمز برجله الأرض فتدخل فيها[٣٩].

وقد رد الإمام أبو شهبة مثل هذه الروايات، فما روي في عظم طولهم لا يصح، فليس معنى قوتهم وعظم خلقهم وشدة بطشهم أنهم خارجون عن المألوف في الفطرة، فما روي في عظم أجسامهم وخروج طولهم عن المألوف فهو من جنس ماروي في العماليق، وأغلب الظن أنها مرويات أهل الكتاب الذين أسلموا، وأنه من الإسرائيليات المختلقة[٤٠]، فالذي يجب أن نأخذ به أن التعاون والقوة من أهم العوامل التي أثرت في قيام حضارة ثمود، دون الخوض في تفاصيل أخرى لا يدل عليها خبر صحيح.

ثالثًا: البيئة الجغرافية والعوامل الطبيعية:

تؤثر البيئة الجغرافية التي ينشأ فيها الإنسان في الشكل الحضاري الذي ينشئه؛ لأنه يأخذ مادته الحضارية مما حوله، كما أن الظروف الطبيعية التي تحيط به لها الأثر في دفعه إلى العمل والإنشاء والإبداع أو تعمل على تثبيط همته وحرمانه من كل جديد، فمن الآراء الشائعة أن البيئة المعتدلة المناخ تساعد الإنسان على التقدم من البيئة الحارة المناخ؛ فالجو الحار يفتر الهمة إلى العمل مع بقاء النشاط الذهني[٤١]، وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته، فهو يرى أن المناطق الحارة يصعب فيها العيش والعمران، أما المناطق المعتدلة والباردة نسبيا هي أكثر ملاءمة لبناء صرح الحضارة وتقدمها، فالحضارة

(٣٨)جامع البيان: الطبرى، ٣٧٧/٢٤.
(٣٩)انظر الجامع لأحكام القرآن: القرطبي،٢٣٦/٧- ٢٣٧.
(٤٠)انظر الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: أبو شهبة، ٢٨٥- ٢٨٦، ط٤، مكتبة السنة.
(٤١)انظر الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها: حسين مؤنس، ٢٧- ٢٨، ط عالم المعرفة، ١٩٧٨م.

عنده تتركز في الأقاليم المعتدلة ويكثر فيها العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه وكذلك الحيوانات، ومن بين هذه الأقاليم أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والصين والأندلس(٤٢).

وتعد حضارة ثمود من بين هذه الحضارات التي نشأت في الحجر بين الشام والحجاز، وقد تقدم سالفاً عن الإمام الطبري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ *وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾{سورة الحجر: ٨٠-٨٢} أن الحجر أرض بين الحجاز والشام، وأصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح عليه السلام.

ومنطقة الحجر بين الشام والحجاز من الأقاليم المعتدلة في مناخها والتي تحدث عنها ابن خلدون؛ وبالتالي فقد أثرت هذه البيئة الجغرافية من حيث مناخها في التشكيل الحضاري لقوم ثمود، فالمناخ المعتدل يدفع إلى العمل والإنشاء والإبداع ويشهد لذلك النهضة العمرانية التي وصلت إليها حضارة ثمود متمثلة في هندسة البناء والإبداع في فن النحت والإنشاء.

كما أن للبيئة الجغرافية من حيث تضاريسها تأثيرا كبيرا في قيام حضارة ثمود، فقد دلت الآيات القرآنية على أن قوم ثمود اعتمدوا على السهول في قيام الزراعة وإنشاء القصور، كما أنهم اعتمدوا على الجبال فنحتوها واتخذوها بيوتا، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾{سورة الأعراف: الآية ٧٤}.قال الإمام ابن عاشور:"السهول جمع سهل وهو المستوي من الأرض والقصور جمع قصر وهو المسكن وهذا يدل على أنهم كانوا يشيدون القصور وآثارهم تنطق بذلك"(٤٣).

(٤٢)انظر مقدمة ابن خلدون، ١١٣- ١١٤.
(٤٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٢٢١/٨.

وتفسير الإمام ابن عاشور لمعنى السهول لا يتعارض مع معناها الجغرافي، فالسهول في معناها العام هي مساحة واسعة من الأراضي المنخفضة والمنبسطة، ولئن وجدت فيها مرتفعات فيجب أن تكون قليلة ولا يشترط أن يكون السهل تام الاستواء ولكن يشترط أن تكون كل منحدراته معتدلة، وتعد السهول جغرافيا أصلح المناطق للإنتاج الزراعي كما أنها أصلح المناطق للنمو الحضري والتجمع السكاني(٤٤).

أمَّا عن الجبال فهي أقل مظاهر التضاريس صلاحية للتوسع الزراعي بسبب شدة انحدارتها وانجراف تربتها، ولا تسمح بقيام مراكز عمرانية كبيرة(٤٥).

وعلى الرغم من وعورة الجبال وصعوبتها في العمران، إلا أن الله ﷻ قد مكّن قوم ثمود من نحت هذه الجبال واتخاذها مساكن بما أنعم عليهم من التعاون والقوة والصبر.

وقد تعرض المفسرون للحديث عن أهمية السهول والجبال ودورهما في بناء حضارة ثمود عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا . . .﴾{سورة الأعراف: الآية ٧٤}، أشارت الآية القرآنية إلى أن محل الامتنان هو أن الله ﷻ قد جعل منازلهم قسمين: قسم صالح للبناء فيه، وقسم صالح لنحت البيوت(٤٦)، وذكر الإمام الرازي في تفسيره أن قوله "تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا": أي تبوءون القصور من سهولة الأرض، والسبب في ذلك أن القصور تعتمد في بنائها على الطين واللبن والآجر، وهذه الأشياء تتخذ من سهولة الأرض، كما أنهم كانوا ينحتون بيوتاً من الجبال يسقفونها، وقيل عن قوم ثمود إنهم كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء وذلك يدل على أنهم كانوا متنعمين مترفين(٤٧).

---

(٤٤)انظر المقدمات في الجغرافيا الطبيعية: عبد العزيز طريح شرف، ١٩٢، ط مركز الأسكندرية للكتاب، الموسوعة في علوم الطبيعة: إدوار غالب ، ٨٣١/٢، ط٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٨م.

(٤٥)انظر المقدمات في الجغرافيا الطبيعية: عبد العزيز طريح، ١٩٦-١٩٧.

(٤٦)انظر التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٢٢١/٨.

(٤٧)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٣٠٦/١٤.

ومن هنا يتبين أن كلمة سهول بحروفها السهلة الرخوة تدل على استواء هذه الأرض وانبساطها مما مكنهم من بناء القصور فيها، كما أن معناها يوحي من طرف خفي إلى سهولة أحوالهم ومعيشتهم وكثرة أرزاقهم؛ وكما ورد عن المفسرين أنهم كانوا مترفين يعيشون في رغد من العيش، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[سورة الشعراء: الآيات ١٤٦-١٤٨}، فالسهول مشهورة بخصوبة التربة وكثرة زراعتها وتنوعها بين الحدائق والنخيل والعيون، ولذلك بنوا القصور في هذه السهول حيث الاستقرار ورغد العيش، علاوة على أن بناء القصور في الأرض السهلة تكون أمكن وأثبت وأجمل[٤٨]، مما يدل على تميزهم بحضارة عمرانية فائقة.

كما دلت الآيات السابقة من سورة الشعراء على تفوقهم في الزراعات المتنوعة، قال الإمام أبو زهرة: "والجنات جمع جنة والعيون عيون الماء المثمرة، والجنات الأشجار الباسقة من كرم وتفاح ورمان وغيرها، وزروع جمع زرع وهو النبات الذي يكون فيه الحب المتراكب ويتغذى فيه الإنسان والذي يكون فيه السنابل من قمح وأرز وغير ذلك من النعم التي أنعم بها على الإنسان في غذائه"[٤٩]، وخص النخل بالذكر في هذه الآيات لتميزه على سائر الزروع الأخرى. قال الإمام الرازي: "(فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ) في الذي استقر من هذا المكان من النعيم، قول مجمل فسره بقوله: (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) وهذا أيضا إجمال ثم تفصيل، فقد قال ونخل بعد جنات على الرغم من أن الجنة تتناول النخل لسببين: الأول: أنه خص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيها على فضله على سائر الأشجار، والثاني: أن يراد بالجنات غيرها من الشجر؛ لأن اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل والطلع هو الذي يطلع من النخلة كنصل السيف والهضيم اللطيف؛ وقيل: الهضيم اللين

(٤٨)انظر جامع البيان: الطبري، ٣٨١/١٩،انظر الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية: عبدالله عبدالغني سرحان، ٦٠.

(٤٩) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، ٥٣٩٠/١٠.

الناضج"[٥٠]، ورجح الإمام الطبري أن الهضيم هو المتكسر من لينه ورطوبته إما بمس الأيدي أو بركوب بعضه بعضا وأصله مفعول صرف إلى فعيل[٥١]. وذلك من ميزات النخيل الذي كان يزرعونه.

وقد ساعد قوم ثمود على النهوض بالحضارة الزراعية كما تقدم، وجود السهول علاوة على وجود العيون المائية المذكورة في الآيات السابقة، فلم يكن لديهم أنهار دائمة الجريان وإنما كانت مياههم قليلة والدليل على ذلك أن مياههم قسمة بينهم وبين الناقة[٥٢]، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾{سورة الشعراء: الاية١٥٥}. قال الإمام الرازي: "وكان الماء عندهم قليلاً فجعلوا ذلك الماء بالكلية شربا لها في يوم وفي اليوم الثاني شربا لكل القوم"[٥٣]، وذكر الإمام ابن كثير في تفسيره أن لقوم ثمود بئرا كانوا يقتسمون عندها الماء مع الناقة[٥٤].

كذلك من الآيات القرآنية التي تدل على تمتعهم بحضارة عمرانية وزراعية متقدمة، قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾{سورة هود: الآية ٦١}، ذكر الإمام الطبري في تفسيره أن معنى قوله تعالى:(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ) هو ابتدأ خلقكم منها والسبب في ذلك أنه خلق آدم من الأرض فخرج الخطاب لهم[٥٥]، وهذا وجه صحيح ولكن هناك وجه آخر وهو أقرب منه؛ لأن الإنسان مخلوق من المني والمني يولد من الدم والإنسان مخلوق من الدم والدم تولد من الأغذية وهذه الأغذية حيوانية أو نباتية والحيوان حاله كحال الإنسان، فوجب انتهاء الكل إلى النبات وظاهر أنه

(٥٠) مفاتيح الغيب: الرازي، ٢٤/٥٢٤- ٥٢٥.
(٥١)انظر جامع البيان: الطبرى، ١٩/٣٨١.
(٥٢)انظر فجر الحضارة العربية القديمة - رؤية تاريخية حول حضارات الأقوام العربية العتيقة، عاد – ثمود – مدين: عبدالله عبده إسماعيل، ١١.
(٥٣)مفاتيح الغيب: الرازي: ١٤/٣٠٥.
(٥٤)انظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير،٣/٤٤٠.
(٥٥)انظر جامع البيان: الطبري: ١٢/٤٥٣.

تولد النبات من الأرض فثبت أن الله ﷻ أنشأنا من الأرض[٥٦]، وهذا ظاهر في شأن قوم ثمود، خاصة وأن حضارتهم الزراعية تعلقت بالأرض. قال الإمام ابن عاشور: "والإنشاء خلق آدم من الأرض؛ لأنه إنشاء لنسله وإنما ذكر تعلق خلقهم بالأرض لأنهم كانوا أهل غرس وزرع، فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمة إنشائهم من الأرض فلأجل منافعهم في الأرض قيدت نعمة الخلق بأنها من الأرض التي أنشئوا منها ولذلك عطف عليه واستعمركم"[٥٧].

وأما عن قوله تعالى: ﴿ **وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾، ففيها وجوه: **الأول:** جعلكم عمارها، **والثاني:** أنه تعالى أطال أعماركم فيها واشتقاق واستعمركم من العمر مثل استبقاكم من البقاء، **والثالث:** أنه مأخوذ من العمري أي جعلها لكم طول أعماركم فإذا متم انتقلت إلى غيركم، وقيل: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن وغرس أشجار وقيل: ألهمكم عمارتها من الحرس والغرس وحفر العيون وغيرها[٥٨]، وقد رجح الإمام الطبري أن: ﴿**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾، معناها: جعلكم عمارا أي أسكنكم فيها أيام حياتكم من قولهم: أعمر فلان فلانا داره وهي له عمري[٥٩]. وعلى كل ففي كون الأرض قابلة للعمارات النافعة للإنسان سواء كانت زراعة أو صناعة أو بناء، وكون الإنسان قادرا عليها فيها دلالة عظيمة على وجود الصانع[٦٠].

رابعا: الأمن والنظام السياسي المستقر:

لكي تنهض الحضارات وتتقدم لابد لها من نظام سياسي مستقر ينظم شئونها ويتحقق في كنفه الأمن لها.

---

(٥٦)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٣٦٧/١٨.
(٥٧) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ١٠٨/١٥.
(٥٨)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٣٦٧/١٨- ٣٦٨.
(٥٩)انظر جامع البيان: الطبري، ٤٥٣/١٢.
(٦٠)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٣٦٨/١٨.

ولن يتحقق ذلك إلا في وجود حاكم عادل ينظم شئون المجتمع ويرعى مصالحه معتمدا في ذلك على ما شرعه الله ﷻ حتى يتحقق الصلاح للمجتمع في الدنيا والآخرة(٦١).

وقد عدَّ الإمام الماوردي الأمن قاعدة من قواعد صلاح الدنيا وانتظام عمرانها، قال: "وأما القاعدة الرابعة فهي أمن عام تطمئن إليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن إليه البرئ، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش؛ لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحها، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم؛ لأن الأمن من نتائج العدل، والجور من نتائج ماليس بعدل"(٦٢).

ومن هنا كان الأمن من أهم الأسباب التي ساعدت قوم ثمود على بناء صرحها، فمن ثمراته كثرة النعم وتنوعها وما تبعها من رفاهية ورغد في العيش علاوة على الطمأنينة في المسكن، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾{سورة الحجر: ٨٢}، وقوله تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾{سورة الشعراء: الآيات ١٤٦-١٥٠}.

فأما عن الآية الأولى، فقد تعددت أقوال المفسرين في معنى كلمة "آمنين"، قال الإمام الطبري: آمنين من عذاب الله(٦٣)، وهذا ما رجحه الإمام الرازي(٦٤)، وقال الإمام المراغي: "آمنين من هدمها ونقب اللصوص لها أو تخريب الأعداء لقوة أسرها وبديع إحكامها"(٦٥)، وقال الإمام ابن عاشور: "آمنين عقب نحتها وسكناها وكانت لهم بمنزلة

(٦١)انظر مقدمة ابن خلدون، ٣٧١.
(٦٢) أدب الدنيا والدين: الماوردي، ١٤٢، ط دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.
(٦٣) انظر جامع البيان: الطبري، ١٠٤/٤.
(٦٤)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ١٥٧/١٩.
(٦٥) تفسير المراغي، ٤٠/١٤.

الحصون لا ينالهم فيها العدو ولكنهم نسوا أنها لا تأمنهم من عذاب الله"[٦٦]، قال الإمام ابن عطية: "والأصح في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة فكانوا لا يعملون بحسبها بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها"[٦٧].

وذهب الإمام ابن كثير إلى أن الأمن في هذه الآية هو عدم الحاجة والضرورة لفعلهم هذا. قال الإمام ابن كثير: " أي نحتوا بيوتا من الجبال من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشرا وبطرا وعبثاً"[٦٨]، فالطمأنينة المحضة والراحة الخالصة هي التي دفعتهم للهو واللعب بنحت هذه الجبال على أشكال مختلفة، ولا حرج في ذلك ما داموا شاكرين لهذه النعم، ولكنهم كفروا وعصوا نبيهم فاستحبوا العمى على الهدى، فدمرهم الله تدميرا [٦٩].

وأمَّا عن معنى الآية الثانية، قال الإمام الطبري: يقول الله ﷻ مخبرا عن قول نبيه صالح لقومه: أيترككم يا قوم ربكم في هذه الدنيا آمنين أي لا تخافون شيئاً[٧٠]، فالأمن في هذه الآية مقابل للخوف، فلو خاف الإنسان من ربه فانتهى عما يغضبه، حلت له الطمأنينة في قلبه وهذا هو الأمن النفسي أو المعنوي والذي لا يتحقق إلا في وجود الأمن المادي المتمثل في الأماكن والظروف والأحوال التي يحيا ويستقر فيها الإنسان[٧١].

وقد عبرت الآية القرآنية عن هذا الأمن الحقيقي الداخلي الذي يحصل من طبيعة الظرف الداعم لمثل هذا الشعور حسب ظن من توجه إليهم الخطاب كتوافر أسبابه المتمثلة في الجنات والعيون والزرع والنخل[٧٢]، قال الإمام الرازي: "أتتركون في ما هاهنا آمنين أي تظنون أنكم تتركون في دياركم آمنين وتطمعون في ذلك وأن لا دار للمجازاة

---

(٦٦) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٧٤/١٤.
(٦٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية، ٣٧٢/٣ .
(٦٨) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٥٤٥/٤.
(٦٩)انظر نعمة الأمن فى القرآن الكريم (دراسة موضوعية): أسامة عبدالرحيم محمد، ١١٠٦، مجلة كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط، العدد التاسع والثلاثون، الجزء الثاني، ٢٠٢١م.
(٧٠)انظر جامع البيان: الطبري، ٦١٨/١٧.
(٧١)انظر نعمة الأمن فى القرآن الكريم (دراسة موضوعية): أسامة عبدالرحيم محمد، ١٠٧٨.
(٧٢)انظر نعمة الأمن فى القرآن الكريم (دراسة موضوعية): أسامة عبدالرحيم محمد، ١٠٧٨.

وقوله: في ما هاهنا آمنين في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ثم فسره بقوله في جنات وعيون ...." [٧٣].

وقد ذهب الإمام ابن عاشور إلى أن هذه الآية جمعت لهم الأمن النفسي والرفاهية والرغد في العيش، قال: "وآمنين حال مبنية لبعض ما أجمله قوله: في ماها هنا وذلك تنبيه على نعمة عظيمة لا يدل عليها اسم الإشارة؛ لأنها لا يشار إليها وهي نعمة الأمن التي هي من أعظم النعم ولا يتذوق طعم النعم الأخرى إلا بها، وقوله: في جنات ينبغي أن يعلق بآمنين ليكون مجموع ذلك تفصيلاً لإجمال اسم الإشارة أي اجتمع لهم الأمن والرفاهية"[٧٤].

أما عن النظام السياسي المستقر في حضارة ثمود، فلم يتعرض له القرآن بالتفصيل، وقد اكتفى بالحديث عن ملأ ثمود، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ {سورة الأعراف: الآية٧٥}.

وعن تفسير كلمة "الملأ" أشار الإمام الرازي أنه القوم الذين تمتلئ القلوب من هيبتهم[٧٥]،وكذا قال الإمام البغوي[٧٦] وعرفهم الإمام السعدي بأنهم الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق[٧٧]،.

ونلحظ من تفسير المفسرين لكلمة "الملأ" أن لقوم ثمود سلطة تنظم شئونها وترعى مصالحها[٧٨]، وقد ذكر الإمام ابن كثير في البداية والنهاية أن لقوم ثمود نادي يجتمع فيه الرؤساء والحكام للتشاور وإبداء الرأي، فقد اجتمعوا يوما في ناديهم للتشاور في

([٧٣]) مفاتيح الغيب: الرازي، ٥٢٤/٢٤.
([٧٤]) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ١٧٥/١٩.
([٧٥])انظر مفاتيح الغيب: الرازى، ٣٠٧/١٤.
([٧٦]) معالم التنزيل: البغوى، ٢٥٧/٣.
([٧٧])انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ٢٩٥.
([٧٨])انظر فجر الحضارة العربية القديمة، رؤية تاريخية حول حضارات الأقوام العربية العتيقة (عاد- ثمود – مدين): عبدالله عبده إسماعيل أبو الغيث، ١٢، مجلة كلية الآداب، العدد ٨٨، جامعة بغداد

أمر صالح عليه السلام والمكر به والتآمر لقتله وقتل الناقة وهم التسعة رهط الذين تحدث عنهم القرآن(٧٩)، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾{سورة النمل: الآية ٤٨}.

والنادي في اللغة يرادف لفظ الندوة ويقصد بها المجلس والمشاورة والجماعة، وأطلق هذا اللفظ على دار الندوة بمكة وهي مقر لتنظيم وإدارة شئون مكة، وكان يجتمع بها حكماء وزعماء مكة من قريش لكي يتشاوروا ويتحاوروا ويبدوا بآرائهم في أمور معينة(٨٠).

كما أن الذي يدقق في أحداث قصة التسعة رهط الذين اجتمعوا في ناديهم للنيل من صالح عليه السلام يجد تشابها مع أحداث قصة زعماء مكة الذين اجتمعوا في دار الندوة لمواجهة الإسلام والكيد له وللرسول ﷺ(٨١). قال الإمام ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾{سورة النمل: الآية ٤٨ –٤٩}: "وهذا الجزء من قصة ثمود لم يذكر في غير هذه السورة وأحسب أن سبب ذكره أن نزول هذه السورة كان في وقت تآمر فيه المشركون على الإيقاع بالنبي ﷺ وهو التآمر الذي حكاه الله في قوله ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾{سورة الآنفال: الآية٣٠}، فضرب الله لهم مثلاً بتآمر الرهط من قوم صالح عليه السلام ومكرهم وكيف كان عاقبة مكرهم؛ ولذلك نرى بين الآيتين تشابها وترى تكرير ذكر مكرهم ومكر الله بهم وذكر أنه في قصتهم آية لقوم يعلمون"(٨٢).

---

(٧٩)انظر البداية والنهاية: ابن كثير، ١٥٣/١.

(٨٠)انظر تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيدي، ٥٣/٤٠، ط دار الهداية ودار إحياء التراث، ١٣٨٥- ١٤٢٢هـ/١٩٦٥- ٢٠٠١م.

(٨١)انظر الرحيق المختوم: المباركفوري، ١٤٣-١٤٥، ط١، دار الوفاء، بيروت.

(٨٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٢٨٤/١٩.

المبحث الثاني

عوامل هدم حضارة ثمود

تقدم في المبحث السابق أهم النعم التي أنعم الله بها على قوم ثمود، والتي كان لها دور في بناء صرح حضارتهم وتحقيق أمنها ورقيها، ولكنهم قابلوا كل هذه النعم بالإجحاف والجحود؛ فلم يشكروا الله على مننه، فكفروا به وأشركوا في عبادته، فعمَّ بينهم الفساد والمنكرات وتمردوا على رسولهم وأعرضوا عنه، فكان الانهيار والانقراض مصير حضارتهم.

وبناء على ما سبق سنعرض في هذا المبحث أهم عوامل هدم حضارة ثمود وهي:

أولاً:الكفر بالله وتكذيب الرسول:

تقدم في المبحث السابق أن العامل الديني هو العامل الأساسي في بناء الحضارات وتكوينها، وهذا العامل هو اللبنة الأساسية لتشكيل العوامل الأخرى والتي من خلالها تتكون الحضارات وتزدهر.

فالعقيدة الصحيحة هي العامل الرئيسي لقيام الحضارات وبقائها، كما أنها العامل الأساسي في ازدهار المجتمع وتقدمه؛ فكل سبل الخير ناتجة عن العقيدة، فيجب أن تكون مرجعية الحضارات في جميع مظاهرها المادية والمعنوية مرجعية دينية تنبع من الإيمان بالعقيدة فيما تقرره من تصورات معينة، **الأول:** تصور الوجود يقوم على إله واحد خالق لهذا الكون له كل صفات الكمال، **الثاني:** تصور للحياة يقوم على أنها مرحلة أولى يكون فيها التكليف ومرحلة ثانية يكون فيها الجزاء، **الثالث:** وهو تصور لصلة العبد بربه، ويقوم على أنها صلة رسالة يحملها إليه رسول ليكون الإنسان بمقتضاها عبدا لله لوحده، وبعد ذلك يوجه ذلك الإنجاز في تحققاته العملية بشريعة هادئة وأخلاق مرشدة ليصل إلى تأسيس حضارة دينية المنطلق دينية الصبغة دينية الغاية[٨٣]، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

(٨٣)انظر معالم المنهج الحضاري في الإسلام: عبدالمجيد النجار، ١٥٠- ١٥١.

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[سورة النور: الآية٥٥}، قال الإمام السعدي: "هذا من أوعاده الصادقة التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم من الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها...، فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين والأمن التام، فقام صدر هذه الأمة من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم فمكنهم من البلاد والعباد وفتحت مشارق الأرض ومغاربها وحصل الأمن التام والتمكين التام"[٨٤].

ومن هنا يتبين أن العقيدة الصحيحة هي السبب في استمرار الحضارات وتقدمها، فإذا افتقدتها واتجهت ناحية الكفر كان مصيرها الانهيار.

فالكفر بالله وتكذيب الرسل هو العلة الجوهرية لظهور العوامل الأخرى لسقوط الحضارات كالفساد والترف والطغيان وغيرها؛ ومن هنا يرى ابن خلدون أن قيام الحضارات وانهيارها يرجع إلى الحق والباطل، فالذين راعوا الدين واعتمدوا الحق لم يضرهم تبديل شكل الدولة، والذين طغت عليهم النزعات النفسية فاستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم ومقاصدهم وتركوا ما كان عليه سلفهم من تحرير القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها هم الذين تركوا الدين وراء ظهورهم، فتغير الوازع الديني إليهم وتحول إلى مقاصد التغلب والقهر والتقلب في الشهوات والملاذات، فتخرب عمرانهم وآلت بهم الدولة إلى السقوط[٨٥].

ومن هنا يتضح أن كل كسوب الإنسان الحضارية ناشئة عن العامل الديني المتمثل في التوجيه الروحي والأخلاقي، سواء كانت هذه الكسوب تتعلق بعلومه ومعارفه أو بأنظمته وعاداته أو بتخطيط مدنه ورسم مساكنه أو بتشييد عمرانه[٨٦]، وهذا ظاهر في

([٨٤]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ٥٧٣.
([٨٥])انظر مقدمة ابن خلدون، ١٩٦،١٩٨، وانظر روح الحضارة الإسلامية: ابن عاشور، ٧١-٧٢، ط٢، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
([٨٦])انظر معالم المنهج الحضاري في الإسلام: عبدالمجيد النجار، ١٥١.

بناء حضارة ثمود، فعندما كانوا يعبدون الله ﷻ ويؤمنون به، أنعم الله عليهم بالكثير من النعم والتي كان لها دور في بناء حضارتهم، ولكنهم لما كفروا بربهم وكذبوا رسوله كان مصير حضارتهم الانهيار.

وقد ذكر المفسرون أن ثمود قامت بعد قوم عاد، فنمت وازدهرت واتسعت حضارتها، وقد كانوا في بداية الأمر موحدين لله، ولعل السبب في ذلك أنهم اتعظوا بما حل بعاد، ثم طالت مدتهم وانتعشت حضارتهم، فعاشوا في رغد ورفاهية فعتوا واستكبروا ونسوا نعم الله عليهم، فلما ظهر فسادهم وعبدوا الأصنام من دون الله، أرسل الله إليهم نبيه صالح ﷺ رسولاً يدعوهم إلى التوحيد، فكذبوه وعقروا الناقة ولم يؤمن به إلا القليل من المستضعفين وأعرض عنه كبراؤهم(٨٧). قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾{سورة الأعراف: الآيات:٧٤-٧٨}.

وقد تعددت الآيات القرآنية التي دلت على كفر قوم ثمود وتكذيبهم لرسوله، فكان ذلك سببا لهلاكهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ {سورة التوبة: الآية ٧٠}، "فقد أتت قوم نوح وعاد وثمود وسائر الأمم الذين ذكرهم الله في هذه الآية رسلهم من الله بالبينات، فما أهلك الله هذه الأمم التي ذكر أنه أهلكها إلا بإجرامها وظلمها أنفسها واستحقاقها من الله عظيم العقاب، فالقوم الذين أهلكهم ظلموا أنفسهم بمعصية الله وتكذيبهم رسله حتى أسخطوا، فحقت عليهم كلمة

(٨٧)انظر جامع البيان: الطبري، ٢٨٦/١٠،انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٣٠٤/١٤-٣٠٥، انظر التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٢١٦/٨.

العذاب فعذبوا"[٨٨]، وقد كان نبيهم صالح معروفا بينهم بالفضائل الحسنة ورغم ذلك كذبوه ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ {سورة الشعراء: الآيات ١٤١-١٤٥}، قال الإمام ابن عاشور: "ثمود قد كذبوا المرسلين؛ لأنهم كذبوا صالحا، وكان صالح معروفاً بالأمانة لأنه لا يرسل رسولاً إلا وهو معروف بالفضائل، وكانوا قد أعرضوا عن عبادة الله تعالى وأنكروا البعث وغرهم أيمة كفرهم في ذلك فجاءهم صالح رسولاً يذكرهم بنعمة الله عليهم بما مكن لهم من خيرات وما سخر لهم من أعمال عظيمة"[٨٩]، وقد صرحوا بكفرهم هذا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ {سورة إبراهيم: الآية ٩}، قال الإمام الطبري: "وقالوا لرسلهم: إنا كفرنا بما أرسلكم به من أرسلكم من الدعاء إلى ترك عبادة الأوثان والأصنام، (وإنا لفي شك) من حقيقة ما تدعوننا إليه من توحيد الله ويريبنا ذلك الشك أي يوجب لنا الريبة والتهمة فيه"[٩٠].

والذي حملهم على تكذيبهم لنبي الله صالح عليه السلام أسباب منها ادعاؤهم أنه بشر مثلهم، وذلك في اعتقادهم ينافي أن يكون رسولاً من الله؛ لأن الرسول في زعمهم لا بد أن يكون مخلوقاً خارقاً للعادة كأن يكون ملكاً[٩١]، قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ {سورة الشعراء: الآية١٥٣- ١٥٤}، كذلك من أسباب تكذيبهم لصالح عليه السلام، أنهم جعلوا ما عليه آباؤهم وأسلافهم حجة تمنعهم من الإيمان بالله وبنبيه صالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا

(٨٨) جامع البيان: الطبرى، ٥٥٦/١١،انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ١٠٠/١٦.
(٨٩) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ١٧٤/١٩- ١٧٥.
(٩٠) جامع البيان: الطبرى، ٦٠٩/٣.
(٩١) انظر التحرير والتنوير: ابن عاشور، ١٧٦/١٩- ١٧٨.

﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ {سورة هود: الآية٦٢}، فالتقليد الأعمى للآباء والأسلاف كان سببا في رفضهم لدعوة صالح ﷺ، قال الإمام الرازي: "﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ،والمقصود من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد ووجوب متابعة الآباء والأسلاف، والشك هو أن يبقى الإنسان متوقفاً بين النفي والإثبات والمريب هو الذي يظن به السوء، فقوله ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾ يعنى به أنه لم يترجح في اعتقادهم فساد قوله وهذا مبالغة في تزييف كلامه"[٩٢]، وقد أشار القرآن إلى فظاعة وشناعة فعلهم بتكذيبهم لصالح ﷺ، فمن كذب رسولاً واحدا فكأنما كذب الرسل جميعا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ {سورة الحجر: الآية٨٠-٨٤}، قال الإمام ابن عطية: "وقال المرسلين من حيث يجب بتكذيب رسول واحد تكذيب الجميع إذ القول في المعتقدات واحد للرسل أجمع، فهذه العبارة أشنع على المكذبين والآية التي آتاهم الله هي الناقة ويصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والتكسب فيها ومثالاً على ذلك أن بيوتهم كانوا ينحتونها في حجر الجبال، ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكسبهم شيئاً ولا دفع عذاب الله"[٩٣]، وعلى الرغم من أن نبيهم قد جاءهم بآية من عند الله تدل على صدقه إلا أنهم تمردوا وازدادوا فى طغيانهم وعقروا الناقة واستحبوا العمى على الهدى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ {سورة فصلت: الآية ١٧-١٨}، قال الإمام القرطبي: " أي بينا لهم الهدى والضلال، فاستحبوا العمى على الهدى، أي اختاروا الكفر على الإيمان فأخذهم

(٩٢) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٨/ ٣٦٨،وانظر التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٢٠٩/١٢.
(٩٣) المحرر الوجيز: ابن عطية، ٣٧١/٣- ٣٧٢، تحقيق عبدالسلام عبدالشافي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ،انظر تفسير المراغي، ٤٠/١٤، ط١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦.

العذاب المهلك بما كانوا يكسبون من تكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة"[٩٤]، وقد ذكر القرآن أنهم كانوا على وعي بضلالتهم مستبصرين ومعجبين بها، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ {سورة العنكبوت: الآية٣٨}، أي واذكروا عادا وثمود وقد تبين من مساكنهم خرابها وخلاؤها منهم بحلول سطوتنا بجميعهم، وسبب ما جرى لهم تزيين الشيطان أعمالهم، فحسن لهم كفرهم بالله وتكذيبهم رسله، فردهم بتزيينه لهم ما زين من الكفر عن سبيل الله يعني الإيمان به وبرسله وما جاءوهم به من عند ربهم وكانوا مستبصرين في ضلالتهم معجبين بها يحسبون أنهم على هدى وهم على الضلال[٩٥]، وقد وعد الله بنصرة نبيه صالح عليه السلام وهلاك الظالمين ونجاة الذين آمنوا معه فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ {سورة ق: الآيات ١٢-١٤}، قال الإمام الرازي: "وقوله: (فَحَقَّ وَعِيدِ): أي ما وعد الله من نصرة الرسل عليهم وإهلاكهم"[٩٦]، كما قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ {سورة هود: الآيات ٦٦-٦٨}، فبسبب كفرهم وعنادهم نجى الله صالحا والمؤمنين وأهلك ثمود بكفرهم[٩٧].

ومن الآيات التي وردت في هلاكهم: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ {سورة الحاقة: الآية ٥}، تعددت الأقوال في تفسير "الطاغية" **الأول:** أنها الواقعة المجاوزة للحد في الشدة والقوة وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ {سورة

(٩٤) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٣٤٩/١٥،انظر تفسير المراغي، ١١٨/٢٤.
(٩٥)انظر جامع البيان: الطبرى، ١٨/ ٣٩٩، مفاتيح الغيب: الرازي، ٥٦/٢٥.
(٩٦) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٣٢/٢٨.
(٩٧)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٣٧٠/١٨.

الحاقة: الآية١١}، فالطاغية نعت لمحذوف، قال بعضهم: إنها الصيحة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ {سورة القمر: الآية٣١}، وقال آخرون: إنها الرجفة وقال بعض آخر: إنها الصاعقة، **الثاني:** أنها الطغيان أي أهلكوا بطغيانهم على الله بسبب تكذيب رسوله والكفر به، وهذا القول رده المتأخرون لسببين، الأول: أنه لما ذكر في الجملة الثانية نوع الشيء الذي وقع به العذاب وهو قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾{سورة الحاقة: الآية ٦}، وجب أن يكون الحال في الجملة الأولى كذلك حتى تكون المناسبة حاصلة، والثاني: أنه لو كان المراد ما قالوه صحيحا لوجب أن يقال: أهلكوا لها ولأجلها، **أما القول الثالث:** إنها الفرقة التي طغت من جملة ثمود والذين تأمروا بعقر الناقة فعقروها فأهلكوا بسبب هذه الفرقة الطاغية، وقد أشار الإمام الرازي أنه يجوز أن يكون المراد بالطاغية ذلك الرجل الواحد الذي همَّ بعقر الناقة وأهلك الجميع؛ لأنهم رضوا بفعله، فقيل له طاغية[٩٨]، كما ورد في هلاكهم قوله تعالى:﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ {سورة الشمس: الآية١٤}، أى أهلكهم الله وأطبق عليهم عذابه بسبب ذنبهم وهو كفرهم بالله وتكذيبهم برسوله[٩٩].

ثانيا:الظلم:

يعد الظلم أقبح عوامل سقوط الحضارات وانهيارها، فهو يقترن بالكفر والشرك بالله، وقد تقدم آنفاً عن ابن خلدون أن الكفر بالله هو العلة الجوهرية لظهور عوامل السقوط الأخرى ومنها الظلم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾{سورة لقمان: الآية١٣}، ورأي ابن خلدون قد أقره الإمام ابن عاشور في تفسيره فقال: "فالشرك مثلاً حقيقة معروفة يكون بها جنسا عقليا وهو بالنظر إلى ما يبعث عليه وما ينشأ عنه ينتسب إلى حقائق أخرى مثل الظلم ، أي الاعتداء على الناس

(٩٨)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٦٢١/٣٠.
(٩٩)انظر الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٧٩/٢٠.

بأخذ حقوقهم فإنه من أسبابه ومثل الفسق فإنه من آثاره وكذلك التكذيب فإنه من آثاره، ومثل الكبر ومثل الإسراف فإنهما من آثاره أيضا: فمن أساليب القرآن أن يعبر عن الشرك بألفاظ هذه الحقائق للإشارة إلى أنه جامع عدة فظائع، وللتنبيه على انتسابه إلى هذه الأجناس، وليعلم المؤمنون فساد هذه الحقائق من حيث هي وليعلم السامع أن جنس الظلم قبيح مذموم"(١٠٠).

والظلم كما تقدم يطلق على الشرك، كذلك يطلق على الاعتداء على حق الناس، وهو مؤذن بسقوط الحضارات وخراب عمرانها، فالاعتداء على الإنسان في شتى جوانب حياته يجعله ينقبض عن السعي والعمل والذي على أساسه تقوم الحضارات، فتتحطم آماله وأهدافه في التحصيل والكسب، ومن قبيل الظلم استبداد الحاكم وتنعمه بالترف فهو مؤذن بالفساد وبخراب العمران(١٠١).

وقد دلت الآيات القرآنية على أن قوم ثمود انتشر الظلم بينهم بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم رسوله، فكان هذا الظلم سببا في هلاكهم وخراب عمرانهم، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ {سورة النمل: الآيات٥٠: ٥٣}، جاءت هذه الآية تسلية للنبي ﷺ على ما يلاقيه من قومه قريش، قال الإمام الطبري: " فانظر يامحمد بعين قلبك إلى عاقبة غدر ثمود بنبيهم صالح كيف كانت؟ وما الذي أورثها اعتداؤهم وطغيانهم وتكذيبهم فإن ذلك سنتنا في من كذب رسلنا وطغى علينا من سائر الخلق فحذر قومك من قريش أن ينالهم بتكذيبهم إياك ما نال ثمود بتكذيبهم صالحا من المثلات"(١٠٢)، وقد نال قوم ثمود الهلاك والدمار بسبب ظلمهم وتكذيبهم. قال الإمام

(١٠٠) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٢٨٦/١٩.
(١٠١)انظر مقدمة ابن خلدون، ٣٥١- ٣٥٢.
(١٠٢) جامع البيان: الطبرى، ٩٤/١٨.

ابن عاشور: "الخاوية: الخالية ومصدره الخواء أي فالبيوت باق بعضها في الجبال لا ساكن لها، والباء في (بِمَا ظَلَمُوا) للسببية أي أن خواؤها بسبب ظلمهم، والظلم: الشرك وتكذيب رسولهم، فذلك ظلم في جانب الله لأنه اعتداء على حق وحدانيته وظلم للرسول بتكذيبه وهو الصادق، ولما خص الله عملهم بوصف الظلم من بين عدة أحوال يشتمل عليها كفرهم كالفساد كان ذلك إشارة إلى أن للظلم أثرا في خراب بلادهم"[١٠٣]، وإلى هذا المعنى أيضا ذهب الإمام السعدي[١٠٤].

كذلك من الآيات القرآنية التي تدل على هلاك قوم ثمود بسبب ظلمهم قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وعَادٍ وثَمُودَ وقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ والْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ {سورة التوبة: الآية ٧٠}

أشارت الآية إلى أن الله لم يهلك هذه الأمم إلا بسبب إجرامها وظلمها أنفسها بمعصية الله وتكذيبها رسله فكان مصيرها سخط الله عليها، فحقت عليها كلمة العذاب[١٠٥].

ثالثًا: الطيرة:

يعد التطير من أسباب الكفر، ويقصد به التشاؤم في قول المفسرين جميعا[١٠٦]، وسمى التشاؤم تطيرا؛ لأن فيه توقع السوء من جهة الطيور وحركاتها وأصواتها، فالرجل في الجاهلية إذا خرج لقضاء أمر ما، ذهب إلى عش الطير، فإذا طار الطير من جهة اليمين تيمن به ومضى في الأمر، وإذا طار جهة اليسار تشاءم به ورجع عما قصد[١٠٧].

---

(١٠٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٢٨٦/١٩.
(١٠٤)انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ٦٠٦.
(١٠٥)انظر جامع البيان: الطبري، ٥٦٦/١١.
(١٠٦)انظر جامع البيان: الطبري ٣٧٦/١٠، مفاتيح الغيب: الرازي، ٣٤٤/١٤، التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٦٧/٩.
(١٠٧)انظر التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٦٧/٩، وانظر التشاؤم في القرآن: ماجد رجب سكر، ٧١، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الحادي والعشرون، العدد الثاني، يونيو ٢٠١٧م.

وقد نهى النبي ﷺ عن الطيرة فقال: "**الطيرة شرك**"(١٠٨)، والسبب في ذلك أن الناس يرجعون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة ويقطعونها عن قضاء الله، فقد أشركوا مع الله، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ {سورة الأعراف: الآية١٣١}، فالحق أن كل ما يصيبهم من خير أو شر يرجع إلى قضاء الله وتقديره، فالكل من عند الله ﷻ(١٠٩).

وبناء على ما سبق، فقد تطير قوم ثمود من نبيهم صالح عليه السلام وأرجعوا كل ما يحدث لهم من سوء إلى شؤمهم بصالح عليه السلام وبمن آمن معه، فكان ذلك سببا في هلاكهم، قال تعالى: ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ {سورة النمل:الآيه٤٧}، قال الإمام الطبري: "قالت ثمود لرسولها صالح: (**اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ**) أي: تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا وزجرنا الطير بأن سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب"(١١٠)، وذكر الإمام الرازي أن سبب شؤمهم بصالح عليه السلام وبمن معه هو ما أصابهم من الشدة والقحط(١١١)، ولكن صالح عليه السلام أجابهم بقوله"**قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ**" أي أنه ومن معه ليسوا سببا للشؤم، وإنما السبب فى شؤمهم وحلول الضرر بهم هو قضاء الله وقدرته، فالله ﷻ هو الذي يقدر الخير والشر(١١٢).

وعلى الرغم من أن نبي الله صالح عليه السلام حاول إصلاح اعتقادهم في أن النفع والضرر كله بقضاء الله، إلا أنهم تمادوا في طغيانهم وظلمهم بأن يكفروا بربهم، ويكذبوا رسوله. قال الإمام السعدي: "وهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابلوه به"(١١٣).

---

(١٠٨) سنن ابن ماجة: ابن ماجة، ١١٧٠/٢، كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة، حديث رقم ٣٥٣٨، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

(١٠٩)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٣٤٤/١٤.

(١١٠) جامع البيان: الطبري ٨٧/١٨.

(١١١)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٥٦٠/٢٤.

(١١٢)انظر التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٢٨١/٩.

(١١٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ٦٠٦.

رابعًا: الترف والفساد:

يقصد بالترف التنعم والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش، وقيل: أترفته النعمة: أطغته، والمترف هو المتنعم المتوسع في ملذات الدنيا وشهواتها[١١٤].

ويتضح من التعريف اللغوي للترف أنه يشير إلى معنيين، إيجابي وسلبي، فأما الإيجابي ففيه الترف مظهر من مظاهر النعمة[١١٥]، مما ينتج عنه الحضارة والعمران؛ "وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها، والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه، كالصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية، ولسائر أحوال المنزل"[١١٦].

ومن هنا فالحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة، والثروة والنعمة من توابع الملك، فالترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها[١١٧].

أما الجانب السلبي في تعريف الترف، فهو تحوله إلى طغيان وبطر وانغماس في الشهوات والملذات، فينسى الإنسان رسالته في هذه الحياة[١١٨]، فينتشر فيها الفساد مما يؤدي إلى الدمار والهلاك، وهذا ما قرره ابن خلدون: فإذا صار هم الناس النعيم والترف وخصب العيش والدعة والراحة والتفنن في المباني والملابس، فيبنون القصور ويجرون المياه ويغرسون الرياحين ويتمتعون بأحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب فإنه مع مرور الزمن يصبح ذلك خلقًا لهم وسجية وتنشأ أجيالهم في مثل هذا الترف فيأذنون بالانقراض، وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء؛ فالترف إذا بلغ غايته انقلب إلى فساد[١١٩] ومن ثم الهلاك.

---

(١١٤)انظر لسان العرب: ابن منظور، ١٧/٩، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ، تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ٥٨/١٢.

(١١٥)انظر مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم: عمار توفيق أحمد بدوي، ١٢٧.

(١١٦) مقدمة ابن خلدون، ٤٥٠.

(١١٧)انظر مقدمة ابن خلدون، ٢٢٥.

(١١٨)انظر مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم: عمار توفيق، ١٢٧.

(١١٩)انظر مقدمة ابن خلدون، ١٨٤، ٢١٧.

والترف بمعناه الإيجابي من أهم العوامل التي ساعدت ثمود على بناء صرحها، فقد ساعدت الثروة والنعمة على ازدهار هذه الحضارة في بدايتها ووصولها إلى ذروة القوة والمجد والازدهار، وقد ظهر ذلك في الحضارة العمرانية والزراعية التي وصل إليها قوم ثمود، فقد أنعم الله عليهم بإنشاء القصور ونحت البيوت ومكنهم من استصلاح الأرض وزراعتها، فقد عاشوا في رغد من العيش وتحقق لهم الأمن والرفاهية، وقد تناولت الدراسة ذلك بالتفصيل في المبحث السابق فلا داعي لإعادته مرة أخرى في هذا المبحث.

ولكن لما تحولت هذه الثروات والنعم إلى بطر وطغيان وانغماس في الشهوات والمنكرات وعم بينهم الفساد بسبب كفرهم بالله وتكذيب رسوله، أصبح مصير هذه الحضارة الهلاك والفناء، ومن الآيات القرآنية التي تدل على ذلك قوله تعالى: **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴿ سورة الأعراف: الآية ٧٤}، جاءت هذه الآية لتذكير قوم ثمود بنعم الله ﷻ عليهم وأن يشكروه بتوحيده وإفراده بالعبادة واستعمال هذه النعم بما فيه صلاحهم ولا يستبدلوا الشكر بالكفر فيعثوا في الأرض مفسدين[١٢٠]، قال الإمام الطبري: " وأصل العثا شدة الإفساد بل هو أشد الإفساد، يقال فيه: عثى فلان في الأرض إذا تجاوز في الإفساد إلى غايته"[١٢١]، والإفساد في الأرض يقصد به العمل بما نهى الله عنه وتضييع ما أمر الله بحفظه من الإيمان بالله وتوحيده وتصديق رسله[١٢٢].

ومن ألوان الفساد التي انتشرت بينهم، الإسراف والفسوق والظلم والعصيان، والذي حملهم على ذلك هو الافتنان بالترف والتفنن فيه دون الاعتدال، وشكر الله على نعمه، قال ابن خلدون: "فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر،

---

(١٢٠)انظر تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ٤٤٨/٨.
(١٢١) جامع البيان: الطبري، ١١/٢.
(١٢٢)انظر جامع البيان: الطبري، ٢٩٩/١.

فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر، فتكون علامة على الإدبار والانقراض"[١٢٣].

وما ذهب إليه ابن خلدون، قد ذكره المفسرون، قال صاحب تفسير المنار: "العقول السليمة الرشيدة كافية لفهم ما في دعوة الرسل –عليهم السلام– من الخير والصلاح لو لم يمنع عن استعمال هدايتها الافتتان بالترف والتفنن في أنواعه، بدلاً من القصد والاعتدال فيه وشكر الله المنعم به عليه، فالإتراف هو الباعث على الإسراف والفسوق والعصيان والظلم والإجرام يظهر في الكبراء والرؤساء ويسري بالتقليد في الدهماء فيكون سبب الهلاك باستئصال أو فقد استقلال"[١٢٤]، قال تعالى:﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾{سورة الأعراف: الآية: ٧٧}، فالرجفة هنا هي الصيحة التي حركتهم للهلاك، فثمود أهلكت بالصيحة[١٢٥].

كذلك من الآيات القرآنية التي تدلل على أن الترف كان سببا في انتشار الفساد بين قوم ثمود فأدى إلى هلاكهم : قوله تعالى:﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾{سورة الشعراء: الآيات ١٤٦-١٥٢}، تتحدث هذه الآية عن النعم التي أنعم الله بها على قوم ثمود، فالغالب على قوم ثمود هو التمتع باللذات الحسية من المأكل والمشرب والمسكن وقد طلب الله منهم في هذه الآية الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف فلا يجوز الإسراف والتوسع في طلبها والاستكثار من لذاتها[١٢٦]، والإسراف المذكور في الآية هو الإفراط في الشيء والمراد به هنا الإسراف المذموم كله

(١٢٣) مقدمة ابن خلدون،٢١٩.
(١٢٤) تفسير المنار: محمد رشيد رضا،١٥٨/١٢.
(١٢٥)انظر جامع البيان: الطبري، ٣٠٢/١٠.
(١٢٦)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٥٢٥/٢٤.

في المال وفي الكفر، فقد وصف الله المسرفين بأنهم يفسدون في الأرض، فالإسراف منوط بالفساد[١٢٧] والباعث عليه الترف والتفنن فيه دون قصد واعتدال وشكر الله على نعمه.

أما عن المسرفين المذكورين في هذه الآية فقد ذهب المفسرون إلى أنهم كبراء القوم[١٢٨] وأشار الإمام الطبري إلى أنهم الرهط التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون من ثمود ، فقد كانوا يسعون في أرض الله بمعاصيهم[١٢٩]، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾{سورة النمل: الآية ٤٨}، وقد دلَّ قوله: " وَلَا يُصْلِحُونَ " للدلالة على أن فسادهم فساد خالص ليس معه شيء من الصلاح[١٣٠]، فكان نتيجة هذا الفساد انتشار الفوضى وانعدام الأمن بينهم وترك أمورهم فوضى لا ضابط لها من دين ولا خلق[١٣١]، فإذا عم الفساد بينهم وأصروا على الكفر والطغيان كان الهلاك مصيرهم، قال تعالى:﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ {سورة الشعراء :الآية ١٥٨-١٥٩}، قال الإمام الطبرى: "وأخذهم عذاب الله الذي كان صالح توعدهم به فأهلكهم، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً): إن في إهلاك ثمود بما فعلت من عقرها ناقة الله وخلافها أمر نبي الله صالح لعبرة لمن اعتبر"[١٣٢].

خامسا :الاستكبار :

أشارت الدراسة سابقاً في المبحث السابق إلى أن قوة النظام السياسي من حيث استقراره وتحقيق الأمن في كنفه من أهم عوامل بناء حضارة ثمود بشرط تحقيق هذا النظام في ظل حاكم عادل يطبق شريعة الله ويرعى حقوق رعيته، ولكي تستمر هذه القوة وتنتظم

---

(١٢٧)انظر التحرير والتنوير: ابن عاشور، ١٧٦/١٩.
(١٢٨)انظر التحرير والتنوير: ابن عاشور، ١٩/ ١٧٦.
(١٢٩)انظر جامع البيان: الطبري، ٦٢٥/١٧.
(١٣٠)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٥٢٥/٢٤.
(١٣١)انظر زهرة التفاسير: أبو زهرة، ٢٨٨٩/٦، ط دار الفكر العربي.
(١٣٢) جامع البيان: الطبري، ٦٢٩/١٧.

أمورها لابد أن تشتمل على: "الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية، ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة"(١٣٣).

أما إذا افتقدت هذه القوة الشروط السابقة وانحرفت في عقيدتها وتحولت إلى غرور واستكبار فعم فيها الفساد، كان الهلاك مصيرها.

فقد ترك قوم ثمود شريعة الله ﷻ واغتروا بما لديهم من قوة فى إنشاء المباني والقصور وبالنعم التي وصلوا إليها ظانين أنهم يتركوا يعيشون في هذه النعم، ولكن الهلاك كان مصيرهم. قال تعالى: ﴿واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾{سورة الأعراف: الآيات: ٧٤-٧٨}.

قال الإمام الطبري: "(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ): أي قال الجماعة الذين استكبروا من قوم صالح عن اتباع صالح والإيمان بالله وبه"(١٣٤) وهم رؤساء القوم وأشرافهم وقوادهم الذين استكبروا عن الحق(١٣٥).

وقد دلت الآية القرآنية على أن الله ﷻ أتى قوم ثمود القوة والصبر وظهر ذلك في مساكنهم وقصورهم وسائر نعمهم مما يدل على أنهم كانوا مترفين، ولكنهم لم يشكروا الله على نعمه وكفروا به فتحولت هذه القوة إلى استكبار وغرور، فقد استضعفوا واستحقروا الذين آمنوا بما جاء به صالح عليه السلام، والذي حملهم على التمرد والاستكبار هو

(١٣٣) مقدمة ابن خلدون، ٣٧٢.
(١٣٤) جامع البيان: الطبري، ١٠/٣٠٠.
(١٣٥)انظرمعالم التنزيل:البغوي،٦/٤٠٠، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ٢٩٥.

كثرة المال والجاه والترف الذي كانوا يعيشون فيه؛ لأن الاستكبار يتولد من كثرة المال والجاه، أما الاستضعاف فهو يحصل من قلتهما(١٣٦).

فالذين استضعفوا في هذه الآية هم عامة الناس وقد أذلهم كبراؤهم واستعبدوهم، فقد كان زعامة الذين استكبروا قائمة على السيادة الدنيوية الخالية عن خلال الفضائل من العدل والرحمة والإصلاح وغيرها(١٣٧) فالذين استكبروا كفروا بربهم وشق عليهم أن يكونوا مرءوسين ويخضعوا للأوامر والنواهي التي تحرم عليهم الإسراف والملذات وتوقف شهواتهم ورغباتهم عند حدود الحق والاعتدال(١٣٨).

والضمير في قوله تعالى: **(فَعَقَرُوا النَّاقَةَ)** يعود إلى الذين استكبروا، قال الإمام ابن عاشور: "وقد أسند العقر إليهم وإن كان فاعله واحدا منهم لأنه كان عن تمالئ ورضى من جميع الكبراء كما دل عليه قوله تعالى في سورة القمر: ﴿ **فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ**﴾"(١٣٩) {سورة القمر: الآية ٢٩}.

وبسبب كفرهم واستكبارهم وتمردهم أهلكهم الله بفعلهم فقال: ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾ أى أهلكهم الله بالصيحة، فأصبحوا في أرضهم التي هلكوا فيها سقوطًا صرعى لا يتحركون لا أرواح فيهم(١٤٠).

الخاتمة

وتشمل أهم نتائج البحث:-

١- تعد حضارة ثمود من بين الحضارات التي مرت بثلاثة أعمار مرحلية طبيعية هي مرحلة النشأة والبناء ثم مرحلة العلو والازدهار والمجد ثم مرحلة الضعف والانحطاط وقد تأثرت هذه المراحل بعوامل البناء والهدم.

(١٣٦)انظر مفاتيح الغيب: الرازي، ٣٠٧/١٤،انظر تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ٤٢٣/٢.
(١٣٧) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٢٢٢/٨.
(١٣٨)انظر تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ٤٤٨/٨.
(١٣٩) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٢٢٥/٨.
(١٤٠)انظر جامع البيان: الطبري، ٣٠٣/١٠.

٢- اعتمدت حضارة ثمود على عوامل وأسس مادية ومعنوية ساعدت على تقدمها والنهوض بها.

٣- يعد العلم بقسميه المعنوي والمادي من أهم العوامل التي ساعدت على بناء حضارة ثمود.

٤- العلم بالدين له دور في بناء وتأسيس حضارة ثمود في بدايتها، فعندما كانوا يعبدون الله ﷻ ويفردون له العبادة، أنعم الله عليهم بالكثير من النعم حتى وصلوا بحضارتهم إلى ذروة المجد والازدهار.

٥- يعد العلم بالكون من أبرز العلوم المادية التي برعت فيه حضارة ثمود والذي ساعد على ازدهارها وتقدمها، فقد دلت الآيات القرآنية على تفوق ثمود في علم البناء وفن النحت مما ساعدهم على تشييد حضارة عمرانية فائقة، فقد برعوا في بناء القصور ونحت الجبال بما حذقوا بإلهامه تعالى من فنون الصناعة.

٦- ساعد التعاون والمشاركة قوم ثمود على النهوض بحضارتهم والوصول بها مع سائر العوامل الأخرى إلى ذروة المجد والازدهار، وقد تبين أن الجمع بين التعاون والقوة والصبر قد ساعدهم على تحمل الأعمال الشاقة وآدائها مما ساعدهم على النهوض بعمرانهم والذي يعد مظهرا من مظاهر حضارتهم.

٧- ساعدت البيئة الجغرافية والعوامل الطبيعية قوم ثمود على بناء صرحهم، فقد أثر المناخ المعتدل في التشكيل الحضاري لقوم ثمود ودفع هذه الحضارة إلى العمل والإنشاء والإبداع ويشهد لذلك النهضة العمرانية التي وصلت إليها حضارة ثمود، كما أن للبيئة الجغرافية من حيث تضاريسها تأثيرا كبيرا في بناء هذه الحضارة، فقد دلت الآيات القرآنية على أنهم اعتمدوا على السهول في قيام الزراعة وإنشاء القصور، كما اعتمدوا على الصخور والجبال بالرغم من وعورتها في العمران فنحتوها واتخذوها بيوتا بما أنعم الله عليهم من القوة والصبر.

٨- دلت الآيات القرآنية على أن قوم ثمود كانوا منعمين مترفين يعيشون في رغد من العيش بما أنعم الله عليهم من نعم ساعدت على بناء وازدهار حضارتهم منها بناء القصور ونحت الجبال وكثرة الأرزاق وتنوع الزروع وتفوقهم في زراعة النخيل، كما

أنعم عليهم بالعيون المائية التي مكنتهم من هذه الزراعة مما ساعد على النهوض بالحضارة الزراعية الهائلة.

٩- يعد الأمن والاستقرار السياسي من أهم العوامل التي ساعدت قوم ثمود على بناء صرحها ولكن القرآن الكريم لم يتعرض للنظام السياسي في حضارة ثمود بشيء من التفصيل وإنما تعرض للحديث عن ملأ ثمود وهو قواد وأشراف وكبراء القوم مما يوحي بوجود سلطة تنظم شئونها وترعى مصالحها ولن يتحقق ذلك إلا في وجود حاكم عادل يطبق شريعة الله ويرعى حقوقه، ومن ثمرات الاستقرار كثرة النعم وتحقق الأمن النفسي والمادي مما أدى إلى الوصول بهذه الحضارة إلى قمة المجد والازدهار.

١٠-على الرغم من أن الله ﷻ أنعم على قوم ثمود بالكثير من النعم والتى كان لها دور فى بناء صرح حضارتهم وتحقيق ازدهارها وتقدمها إلا أنهم قابلوا هذه النعم بالجحود، فلم يشكروا الله ﷻ وأشركوا في عبادته، فعم بينهم الفساد وكذبوا رسوله فكان مصير حضارتهم الانهيار والانقراض.

١١-تعددت العوامل التي أدت إلى انهيار حضارة ثمود وهلاكها وأساس هذه العوامل الكفر بالله وتكذيب رسوله؛ لأن الكفر بالله وتكذيب الرسل هو العلة الجوهرية لظهور عوامل الهدم الأخرى لهذه الحضارة؛ فقد انتشر الظلم بينهم بسبب كفرهم، كما أنهم بسبب كفرهم تطيروا من نبيهم وبمن آمن معه، وبسبب كفرهم تحول الترف بينهم من نعمة تساعد على البناء إلى بطر وطغيان يؤدي إلى انتشار الفساد بشتى ألوانه من إسراف وفسوق وظلم وعصيان، فانعدم الأمن وانتشرت الفوضى ومن ثم الهلاك كما أن الكفر والعصيان أدى إلى تحول النظام السياسي من قوة ينظم بها شئون الملك إلى غرور واستكبار والسبب في ذلك أن قوم ثمود اغتروا بما لديهم من قوة في إنشاء المباني والقصور وبالنعم التي وصلوا إليها، فتركوا شريعة الله ﷻ واستضعفوا واستحقروا الذين آمنوا والذي حملهم على ذلك كثرة المال والجاه وحياة الترف التي كانوا يعيشونها، فقد تخلوا عن كل الفضائل الحميدة وشق عليهم أن يكونوا مرءوسين يخضعون للأوامر والنواهي التي تحرم عليهم الإسراف وملذات الحياة، وبسبب استكبارهم وغرورهم كان الهلاك مصيرهم.

قائمة المصادر والمراجع

١- أدب الدنيا والدين: أبو الحسن الماوردي، ط دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

٢- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: محمد أبو شهبة، ط٤، مكتبة السنة.

٣- الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية: عبدالله عبدالغني سرحان، ط١، مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليم، الرياض، السعودية، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

٤- الإسلام والحضارة الغربية: محمد محمد حسين، ط دار الفرقان.

٥- البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، اعتنى به صدقي محمد العطار، زهير جعيد، عرفان العشا، ط دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

٦- البداية والنهاية: ابن كثير الدمشقي، ط١، تحقيق علي شيرى ، ط دار إحياء التراث العربي.

٧- تاج العروس من جواهر القاموس: الحسيني الزبيدي، ط دار الهداية ودار إحياء التراث العربي،١٣٨٥- ١٤٢٢هـ- ١٩٦٥- ٢٠٠١م.

٨- تاريخ الرسل والملوك: ابن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ودار المعارف، مصر.

٩- التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

١٠- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة ، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

١١- تفسير المراغى: أحمد مصطفى المراغي، ط١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٦٥هـ- ١٩٤٩م.

١٢- تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ط الهئية المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

١٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر، مصر، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م

١٥- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبدالله محمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

١٦- الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها: حسين مؤنس، ط عالم المعرفة، ١٩٧٨م.
١٧- الخلدونية، العلوم الاجتماعية وأساس السلطة السياسية: نور الدين الحقيقي، ترجمة إلياس خليل وهران، المطبعة الجوهية، ١٩٨٤.
١٨- روح الحضارة الإسلامية: الطاهر بن عاشور، ط٢، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
١٩- الرحيق المختوم: صفي الرحمن المباركفوري، ط١، دار الوفاء، بيروت.
٢٠- زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربي.
٢١- سنن ابن ماجة: محمد بن يزيد بن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
٢٢- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، ط دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٢٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي الشوكاني، ط١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ.
٢٤- القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث، ط٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
٢٥- الكامل في التاريخ: علي بن محمد بن الأثير، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ط دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م.
٢٦- لسان العرب: محمد بن مكرم أبو جمال الدين ابن منظور، ط٣، دار صادر، بيروت.
٢٧- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق عبدالسلام عبدالشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.
٢٨- معالم التنزيل في تفسير القرآن: ابن مسعود البغوي، تحقيق عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرشي، ط٤، دار طيبة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م
٢٩- المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وآخرون، تحقيق مجمع اللغة العربية، ط دار الدعوة.

٣٠- مفاتيح الغيب التفسير الكبير: محمد بن عمر الرازي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٣١- المقدمات في الجغرافيا الطبيعية: عبدالعزيز طريح شرف، ط مركز الأسكندرية للكتاب.

٣٢- مقدمة ابن خلدون: عبدالرحمن بن خلدون، تحقيق حامد أحمد الطاهر، ط١، دار الفجر للتراث، القاهرة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

٣٣- الموسوعة في علوم الطبيعة: إدوار غالب، ط٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٨م.

-الرسائل العلمية:

مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم: عمار توفيق، ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٥م.

-المجلات العلمية:

١- التشاؤم في القرآن: ماجد رجب سكر، مجلة جامعة الأقصى، المجلد الحادي والعشرون، العدد الثاني، يونيو ٢٠١٧م.

٢- فجر الحضارة العربية القديمة، رؤية تاريخية حول حضارات الأقوام العربية العتيقة (عاد وثمود ومدين): عبدالله عبده إسماعيل أبو الغيث، مجلة كلية الآداب، العدد ٨٨، جامعة بغداد، ٢٠٠٩م.

٣- معالم المنهج الحضاري في الإسلام: عبدالمجيد النجار، ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد الخامس والعشرون، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

٤- نعمة الأمن في القرآن الكريم (دراسة موضوعية): أسامة عبدالرحيم محمد، مجلة كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط، العدد التاسع والثلاثون، الجزء الثاني، ٢٠٢١م.